أصبحت معلماً مختلفاً

حلمي حمدان

كان ذلك في تاريخ 8-9-2003، وهو اليوم الأول لي في تلك المدرسة، حيث طلب مني مدير المدرسة أن أعلم مادة العلوم، لم أستزغ ذلك الطلب، كيف ذلك وأنا متخصص في الرياضيات!

في الحقيقة راودتني أفكار غريبة، لا أعرف وقتها، إن كانت منطقية أم هي مجرد رهبة تحمل المسؤولية! تخيلت أنني سأكون معلماً فاشلاً، كيف لا وأنا لست مؤهلاً لتعليم العلوم بكل صراحة؛ لأن تخصص الرياضيات يختلف كلياً عن مادة العلوم.

أصول، وأجول، وتأخذني أفكاري إلى الشرق تارة وإلى الغرب تارة أخرى، شيء غريب، الخريج الجديد همه الأول إيجاد عمل يستقل من خلاله مادياً واجتماعياً، فسألت نفسي: "لماذا لا أقبل بذلك؟ أليس المهم أن أحصل على عمل، مجرد عمل، ولا يعنيني شيء آخر؟

في النهاية، قررت إن أرفض تدريس مادة العلوم، ولو أدى ذلك إلى خسارة العمل، سأعلم الرياضيات، وفقط الرياضيات، هذا هو القرار الأخير.

كل ذلك جاء في ذهني حين قال لي مدير مدرسة: "ستعلم مادة العلوم" في دقائق، وعلى الفور طلبت منه كتابة رسالة إلى مدير التربية والتعليم يبلغه فيها رفضي تدريس مادة العلوم؛ كوني متخصصاً في الرياضيات، وليس في العلوم أو الأحياء، وفعلاً رفضت الدخول إلى الصف مدة يومين إلى أن جاءت رسالة تفيد بنقلي إلى مدرسة بشير البرغوثي الثانوية معلماً للرياضيات.

كم كان جميلاً وممتعاً، عندما دخلت بوابة المدرسة معرفاً عن نفسي بأني معلم الرياضيات الجديد، توجهت بخطوات واثقة إلى أول صف وهو التوجيهي الأدبي، بكل بساطة أنا متمكن من الرياضيات، وأدرسها بشكل ممتاز، لم لا وأنا أحمل شهادة بكالوريوس في الرياضيات من جامعة بيرزيت، هنا لم تجرؤ أفكار الفشل وعدم القدرة على الشرح أن تراودني، أو أن تعكر مزاجي، كما حصل في المدرسة الأولى.

كانت أول حصة مهمة، فعندما بدأت الشرح كنت أسأل الطلبة: هل فهمتم شرحي؟ كنت دائماً أوجه هذا السؤال لهم، وكانت الإجابة: "نعم"، ولكن بقيت أسأل نفسي هل هذه الطريقة المثلى في التعليم؟ بكل بساطة، في بداية التدريس، لم تتح لي الفرصة لاتّباع أسلوبي الخاص، لم يكن أمامي أسلوب غير أسلوب معلمي أيام المدرسة! وهنا جزمت أنه حتى أصبح معلماً متميزاً، يجب أن أبحث عن ذاتي وعن مهنتي كمعلم.

في الحقيقة، بدأت صراعا مع ذاتي، وبدأت الأسئلة تدور في ذهني، هل فعلا أصبحت معلماً؟ والإجابة محيرة بين نعم ولا؛ نعم لأنني محسوب على المجتمع معلماً، ولكن في داخلي يجب أن أثبت ذاتي كمعلم، ولن يأتي ذلك ببساطة بل يحتاج إلى جهد وعناء.

هل سأكون مثل الأستاذ فلان أو الأستاذ علان؟ بالتأكيد لن أكون غيري، بل سأكون أنا، سأكون ذاتي بشخصيتي المستقلة، بهويتي وأسلوبي، أسلوب تدريسي وأسلوب حياتي.

في بداية الأمر كان أملي أن أصبح مهندساً أو طبيباً، وهم كذلك اعتقدوا (الأهل، والأصدقاء، والأستاذة). فبداية مشواري في جامعة بيرزيت كانت في كلية العلوم، وكنت أحاول خلالها الانتقال إلى كلية الهندسة، وتارة أفكر في كلية التجارة، لكن وجدت نفسي في النهاية على منصة التخرج، ينادون اسمي خريجاً من دائرة الرياضيات.

حاولت بعد التخرج التقدم لوظائف عدة -باستثناء التربية والتعليم- ولكن . . .

- **ألو**
- **مرحباً**
- **أهلاً تحياتي**
- **تم تعيينك في مدرسة عارورة ومزارع النوباني.**
- **شكراً لك.**
- **غداً تأتي إلى مقر التربية لاستكمال أوراقك.**
- **إن شاء الله، ولا يهمك!**

هل سأبقى هكذا حتى التقاعد؟

وهنا تأتي الكارثة، عندما أتذكر ذلك المعلم جارنا، يعمل صباحاً معلماً وفي المساء مصلح أجهزة كهربائية، وذلك الذي أعرفه في الصباح معلماً وفي المساء سائقاً، وآخر معلم صباحاً ومربي أغنام مساءً، وآخر وآخر وآخر . . . وكلهم ينتظرون الوقت الذي يصبحون فيه متقاعدين وليسوا معلمين . . . لن أكون مثلهم، لن أنتظر التقاعد، سأعمل بكل جد لأصبح متطوراً يوماً بعد يوم، سأقرأ الكتب التربوية، وسأتعلم مهارات جديدة في التعليم، وسأصلح الأجهزة الكهربائية، وأعمل سائقاً وأربي الأغنام، لم لا، ولكن سأصبح معلماً متميزاً متطوراً.

ومن هنا ينبع السؤال: كيف بالإمكان إن أصبح مختلفاً؟ كيف يمكن أن أخرج من هذه البوتقة؟ إذاً سأبحث عن كل ما هو جديد ومفيد وناجح، سألتحق بأي برنامج يمكنني الاستفادة منه، ولو بالقليل في مهنتي كمعلم.

كيف سأعلم الطلبة؟ سأعلمهم بأسلوبي الخاص، أم سأقلد زملائي في المدرسة؟ لن أحمل العصا ولن أهمّش المقهورين، ولن أكون فقط كالذين يجلسون في الصفوف الأولى، بل سأكون للجميع، لكل الطلاب. وبالفعل، عملت جاهداً على تطوير ذاتي من خلال الالتحاق بدبلوم التأهيل التربوي، وثم ماجستير التربية، وأصبحت دائماً أبحث عن كل ما له علاقة بالتعليم، حتى أكون معلماً مختلفاً عن معلمي الذي اكتشفت فيما بعد أنه تقليدي ولا جديد عنده، وأحاول أن أكون مختلفاً عن زميلي الذي هو كمعلمي مع فرق أنه زميلي وليس معلمي، وفيما بعد أصبحت مختلفاً حتى مع نفسي، وأصبحت معلماً صاحب مهنة وفكرة ونظرية، ما جعلني أقول بكل فخر: «أنا معلم متميز»، على عكس بدايتي التقليدية في التدريس.

بعد دخولي العام الثامن في هذه المهنة التي تحمل في طياتها معاني كبيرة، معاني الإنسانية والأخلاق والضمير والوطنية، اليوم وبعد كل تلك السنين لا أتخيل نفسي غير المعلم، ولكن أي معلم، فأنا لست ذلك المعلم الذي علمني وعلم أخي وأختي وزوجتي وأبي وأمي وجدي، ولست المعلم زميلي، بل أصبحت المعلم أنا، صاحب هويتي وذاتي وأسلوبي. أصبحت معلماً على الرغم من كل صعوبات الحياة، وقلة الراتب، والمكانة الاجتماعية الصعبة للمعلم في المجتمع، مع كل ما يتبع من عوامل وظروف تؤثر على مكانة المعلم.

عرفت أنني معلم عندما أحبني الطلبة، وأحبوا حصتي، كيف ذلك وأنا معلم الرياضيات، المادة التي يصعب على الطلبة فهمها، فكانوا يتعلمون الرياضيات معاً من خلال المجموعات، يقومون بحل المسألة وإنجاز المهمات داخل الصف، وتحولت حصة الرياضيات من زنزانة انفرادية للطلبة إلى بستان جميل، يتمنى الطالب أن لا يقرع الجرس معلناً نهاية تلك الرحلة التي هي في الواقع حصة رياضيات.

فالأسلوب المختلف والعمل الجاد والإحساس المتعمق حولت نكد حصة الرياضيات إلى مزيج جميل رائحته زكية، وطعمه لذيذ، فأصبحت معلماً وصديقاً لكل الطلبة، أفهمهم ويفهمونني، أتفهم بعض التصرفات وأساعد على تحسينها، فالطالب زهرة جميلة يجب عنايتها وتفهمها، ليس شريراً بل العكس تماماً هو ودود وبريء، ومظلوم ومقموع، وهو بالتأكيد كبقية الناس مقموع من الاحتلال، ومحارب من المجتمع؛ لأنه باعتقادهم أنه جاهل ومراهق وعبثي، نعم هو جاهل ومراهق، لكنه ليس عبثياً، علينا جميعاً حمايته وإرشاده، ويجب الدفاع عنه واحتضانه، فهو معلم الغد، ومهندسه، وطبيبه، وجنديه، وعامله، وأب لطالب آخر من جديد.

لن أنسى ذلك اليوم الذي كنت سأصبح فيه معلماً تقليدياً، معلماً بلا معلومة، عندما كدت أصير معلم علوم، ولن أنسى ذلك اليوم أيضاً عندما أصبحت فيه معلماً ناجحاً حينما أصريت على أن أكون معلماً للرياضيات، معلماً يملك العلم أولاً، والطريقة ثانياً، وكلاهما متلازمان.

حلمي حمدان
مدرسة بشير البرغوثي-بني زيد الثانوية

من ورشة عمل حول توظيف عباءة الخبير.